اسماعيل شموط

بورتريه لم يكتمل

الدخول الى عالم الفنان التشكيلي إسماعيل شموط ، أشبه ما يكون بجردة حساب مع التاريخ ، ومراجعة لأحداث وقصص لشعب لم تكتمل بعد مسيرته بالاستقلال ونيل حريته ، فعالمه المليء بالحكايات والمعاني يتقاطع فيه ويتصارع ، الفني مع السياسي ، وهو عالم إنساني يمتزج فيه الألم والفرح مع المقاومة والتبشير بالخير وصلابة الايمان .

بهذا المعنى لا يمكن قراءة أعمال شموط بمعزل عن شرطها التاريخي فاللون و " الفورم " الشكل عنده وضربات الفرشاة والتخطيط والموضوع ليس بحثاً فنياً شكلانيًا محضاً ، بل هي حالة تعبير متصلة بالواقع زماناً ومكاناً ، وقد أُنتجت أعماله ضمن سياقات سياسية/ اجتماعية أو دللت بالضرورة على هذه السياقات ليس بسبب الظروف المحيطة به فقط ، وإنما بسبب خياراته الواضحة أيضا .

إننا ونحن نشاهد لوحات شموط لا نستطيع الفكاك من كونها سلسلة متصلة تفضي إلى

سيرته كفنان والى سيرة الشعب الذي ينتمي إليه. ولهذه وتلك دلالات تستحق البحث والعناية دون إغفال الصلات العميقة التي تربط حياته كفنان مع الحيز الذي تحرك فيه وعايشه وبالإشارة إلى التاريخ والحياة التي تلف أعماله وتفيض عنها، تلك الأعمال والآثار التي تتميز بالوفرة والتفجر.

وربما ينطبق عليه كفنان أكثر من أي فنان آخر شرط قراءته في السياق الاجتماعي والسياسي نظراً لطول تجربته و فرادتها، فالرجل عاش وعمره أكبر من الدولة التي تسببت في مأساته ومأساة شعبه وأعماله تكاد تكون وثائق وسجلات لهذه المعركة الممتدة منذ النكبة وحتى يومنا هذا.. بمحطاتها المختلفة.

فقد ولد الفنان إسماعيل شموط في مدينة اللد عام ١٩٣٠ في أسرة متوسطة الحال مكونة من تسعة أفراد وهو الأخ الأكبر لأشقائه السبعة. وتفتحت طفولته، هناك، على عالم من الألوان والطبيعة والمشاهدات التي بقيت مطبوعة في ذاكرته حتى يوم رحيله عن الدنيا في٤-٧-٢٠٠٦ وهي حالة ربيع دائم، منطقة محاطة ببيارات البرتقال والليمون وبساتين الكروم والحواكير الخضراء كما كان يقول "السهول من حولنا ممتدة واسعة مزدانة بالأزهار المتنوعة الأشكال والألوان".

كان لا يزال في الثامنة عشرة من عمره عندما نزح مع عائلته في العام ١٩٤٨ من مدينة اللد إلى مخيم خانيونس للاجئين في قطاع غزة، وقد كانت المنطقة التي انتقل اليها اللاجئون عبارة عن رمال خالية ممتدة، ونقيض الخضرة والبيارات والجبال والسهول، التي عاشها شموط منذ طفولته. تعهد الشباب والرجال من المهجرين نصب الخيام التي آوت المنكوبين في حينه، ليكرس مع الوقت كمخيم لا زال قائماً بعد أن تآكلت الخيام.

قبل ذلك وفي مدارس اللد كان شموط قد تتلمذ على يد المصور المقدسي "داود زلاطيمو" وكواحد من أبرز التلاميذ الموهوبين كان مقدرا له توظيف ملكاته وطاقته الفنية في رصد وتوثيق تجربة اللجوء، وليصبح مع الوقت فنان فلسطين الكبير فقد أخذ على عاتقه مهمة التعبير عن مأساة شعبه.. بالموهبة التي راح يصقلها مع الوقت، وقد كان يتأسس في ذهن إسماعيل الفتي معنى النكبة، ومعنى فقدان المكان والهوية.

عمل إسماعيل في المخيم كبائع حلوى لتحصيل القوت، ثم عمل معلماً للتربية الفنية في

مدارس الوكالة حيث تبلورت موهبته في الرسم قبل ان يسافر إلى القاهرة لدراسة الفنون وقد عمل إثناء دراسته للفنون الجميلة في التصميم الإعلاني والرسوم التوضيحية ليعيل نفسه أولا ولتحقيق ولعه بالرسوم التوضيحية والاعلان . .

من مزيج صور الطفولة المشتهاة، ومن صور النكبة والنزوح المثقلة بالحزن والفقد والاستلاب، استوحى شموط موضوعاته لأولى لوحاته الزيتية التي عكست تراجيديا النكبة وشكلت جسرا للحنين إلى الماضي الجميل، وقد عرضها للجمهور. وشكل معرضه الأول في غزة في العام ١٩٥٣ ومن ثم معرضه في القاهرة بمشاركة زميلته وزوجته الفنانة تمام الأكحل والفنان نهاد سباسي في العام ١٩٥٤ ـ افتتحه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ـ بداية مهمة، ودفعة لمسيرة هذا الفنان المثابر الذي راح يشق طريقه بجهد وتعب، وسط تململ في المحيط العربي، ومحاولة لمحو أثار الهزيمة ووجود ساحة وحاضنة للنضال القومي.

أراد من خلال هذه المعارض ان يصرخ ربما من خلال لوحاته وان يعلن احتجاج روحه الفتية في مواجهة العالم الظالم. من هناك ذهب شموط في منحة دراسية لمدة سنتين في أكاديمية الفنون في روما ليستقر بعد عودته من ايطاليا في بيروت في عام ١٩٥٦ حيث عمل في الرسم والتصميم . وهناك حيث قضى سني إنتاجه الأساسية ، كان في قلب الحدث الفلسطيني والعربي، وفي قلب الحركة الثقافية العربية الحديثة ، ظل مشدوداً إلى موقفه فناً وقضية وحافظ على واقعيته لتكون اللوحة دليلاً وشاهداً على بساطة لا يجد المتلقي صعوبة في تأويلها.

ومن خلال مجموعة اللوحات الشهيرة المتعلقة بمأساة تل الزعتر، وكذا اللوحات التي صورت الفدائيين والثورة وبروز ثيمة الكوفية والبندقية والقبضات والعلم الفلسطيني والوانه كطيف احياناً نستطيع ان نلحظ الى جانب الوجوه والعيون التى مثلت علامة فارقة في فنه، حجم الأسئلة والتحديات التي واجهت الانسان الفلسطيني قي تلك المرحلة من الوجود والكفاح.

ومرورا بعمله في منظمة التحرير منذ تأسيسها ورحيله من بيروت عام ١٩٨٢ وحتى استقراره في الكويت ومن ثم رحيله ثانية اثر اندلاع حرب الخليج إلى ألمانيا ثم استقراره في عمان قريباً من فلسطين وهو يواصل مسيرته الفنية بلا كلل مشدداً على موضوعته الأهم رغم

كثرة الحروب والهزائم "القضية فلسطين" .

الى جانب دراسته الاكاديمية في مصر و لاحقاً في روما ومراسه وتأثره بالواقعية الاشتراكية وبفن امريكا اللاتينية، تركت تجربة إسماعيل في العمل بالتصميم الجرافيكي الدعائي أثناء دراسته في القاهرة ومن ثم في بيروت وفي الكويت وقبل ذلك اهتمامه المبكر بتصميم الأزياء وخاصة ثياب العروس تركت ظلالاً على أعماله الزيتية والتي كرسها بوعي لخدمة قضيته واسلوبه الفني الكلاسيكي فتعمد التبسيط والإصرار على التوصيل الجماهيري تكريسا لمقولة الفن في خدمة الجماهير. . فقد دأب على أن تكون اللوحات والرسومات مقترنة بحالة وحكاية يلخصها عادة بالأسماء التي يطلقها على لوحاته مثل "العطش" "إلى أين؟ وسنعود" الأمر الذي يضع اللوحات في سياق درامي يحيلنا إلى القصص التي تقف خلفها ويحيل الأشخاص الذين تم تمثيلهم أو تخيلهم إلى ذاكرة وحاضر ومصير. .

وفي هذا التضمين والإيحاء، يمكن أن نلحظ صدى ولو من بعيد لمفهوم الشرق للفنون والرسم على وجه التحديد. . المقترن بالحكايات والمخطوطات وكتب الحكمة، وعلم النباتات والهندسة. . والتي تعتبر مقامات الحريري التي رسمها الواسطي عام ١٢٣٧ مثالها الأهم . .

وحتى الأفكار والمواقف التي أراد إسماعيل توصيلها بالتشخيص الواقعي والمجاز عبر عنها بالخطوط والألوان والتي بدورها عكست مفاهيم ورموزاً أراد لها أن تنوب عن الكلام المكتوب او المنطوق ، فملامح شخصياته ومشاعرهم التي تطفو على الوجوه والأيدي والقامات التي تتضامن مع بعضها أو تنتظر. والفضاء الذي تتحرك أو تعيش فيه هذه الشخصيات، مخيم او عراء او بيارة برتقال كلها مقولات وجدت مفاهيمها وصداها بين الناس كمثال روحي.

وفي المجاز أراد للون الصبح مثلاً أن يعبر عن الأمل والمستقبل والخضرة الوافرة والشجر عن الحنين إلى الماضي "ربيع فلسطين" الربيع الذي كان" والغروب والليل والنار إلى الحزن والضياع . . كما في لوحة "ذكريات ونار" . .

وتبقى لوحات شموط التي تحول بعضها الى ايقونات وملاحم مثل "الى اين ١٩٥٣" والتي تصور عجوزاً وثلاثة اطفال في فضاء قاحل وفي الخلفية البعيدة اثار قرية، و "سنعود" ١٩٥٤

وذكريات ونار ١٩٥٦ وعروسان على الحدود (١٩٦٢) وغيرها من بواكير أعماله الواقعية التي نافست الكاميرا في تصوير النكبة والنزوح . . تبقى في الذاكرة والوجدان كوثائق وليس مجرد لوحات تعبيرية، الأمر الذي اكسبها أهمية تاريخية إلى جانب إمكانياتها التعبيرية . وقد وقفت اعمال شموط بجدارة إلى جانب الصور المتوفرة للنكبة بالأبيض والأسود انذاك والتي في الغالب كانت لمصورين أجانب ولبعض المصورين الفلسطينيين . .

فتراجيديا النكبة التي عاشها الفنان بوعي الشاب ونقلها بريشته وبألوان الزيت على التوال اسوة بلوحات الفنانين الكبار في حينه توثيقاً وتعبيراً عن المرارة والظلم التاريخي الذي لحق به وبمجموع اللاجئين وهم ينتزعون من أرضهم عنوة ويشردون الى أين؟ كانت بمثابة الدليل ورواية الشاهد التي تركت بصماتها على مسيرة الفن في فلسطين بعد ذلك، وكذا الصمود والمقاومة في أعماله اللاحقة والتي نلحظ بها استمرار رصده لحالة الفلسطينيين وملاحم وصور البطولة التي ظهرت في أعماله فسرعان ما أخذ الضحية من حالة الضياع والألم كما في لوحة "الى اين؟" الى حالة التأمل في "ذكريات ونار" ثم إلى حالة الصمود والأمل كما في عروسان على الحدود، ولاحقاً المقاومة والثورة في كل تجلياتها بدءاً من الثورة المسلحة وحتى ثورة الحجارة والفدائيين .

وبموازاة الرصد التاريخي لأعمال شموط لا بد ان نلحظ تطور أدواته الفنية والتي سرعان ما تبلورت في تمكنه من التشريح والسيطرة الكاملة على الجسد الآدمي وعلى فضاء لوحاته والجرأة والمهارة في التعبير . .

ما نحن بصدده نصف قرن وأكثر من حياة فنان منذ أطلق شموط محاولاته الأولى في الرسم ، على يد معلمة، الأول "داود زلاطيمو" وهي فترة تطور فيها وعيه وتطورت فيها تجربته الفنية الأصيلة لتنتصر على الزمن وعلى المكان وجعلت منه فنان فلسطين الكبير الراسخ .

بقي متجذرا في مكانه وموضوعه فلم ينتم إلى أوطان أخرى ولم تغره أو تبهره التيارات الفنية المتجاذبة وحقق تآلفاً نادراً ما بين الذات والموضوع، دأب على الكفاح من اجل رؤيته كرسام وناشط ثقافي مارس دوراً ريادياً في مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية منذ تأسيس دائرة الثقافة والفنون وترؤسه لها وحتى خروج منظمة التحرير، والثورة، من بيروت في العام ١٩٨٢.، حيث ساهم في دعم مواهب كثيرة وحقق انتشاراً للفن التشكيلي المرتبط

بالموضوع الفلسطيني و ساهم في التبادل والتواصل الفني مع المحيط العربي والعالمي. من خلال المعارض إضافة لرصده وتأريخه لمسيرة الفن التشكيلي في فلسطين من خلال متابعة الكتابة والتأليف.

وقد كان خلال كل ذلك مستغرقاً في رؤياه وفنه إلى جانب عمله في المؤسسة وشموط كشاهد على عصره وكمتشبث بجذوره الثقافية حرص أن يكون كفلسطيني حارساً لهويته المهددة بالإخطار وفقدان الذاكرة ، وفي محاولته لرسم وتصوير هويته وهوية شعبه لم يفتأ في تقديمها كنسيج متكامل يحرص على سلامته بغض النظر عن الهزائم والنكسات وتقلبات الدول وكرس جهده للربط والوصل بين الماضي والحاضر . . فلا تخلو معالجة له في أية لوحة من هذا التواصل كخيط مشدود في الروح بين نقطة البداية في مدينة اللد وحتى يوم غيبه الموت في مشفى في المانيا .

تبدو في مجمل أعماله شخصيته الحية واضحة المعالم والتي تجمع بين المحافظة والثورة، بين الحركة والإيقاع السريع كما في أعماله الأخيرة "السيرة والمسيرة" وبين البساطة والهدوء. والصبر في أعمال سابقة، وان كان انحيازه الدائم لصالح قضايا شعبه دون أي محاولة لنقدهم او لومهم، . . قد ساهم في تكريس صورة الضحية وصورة المكافح في فنه . . كثنائية ليس فيها بين بين. . . وقدم المرأة والرجل والطفل بصورة بهية وملامح نموذجية متشابهة تدعو للإعجاب والتعاطف أكثر مما تدعو للشفقة أو البكاء على حالها. . . لم يرسم شموط الرجل سمين أو المرأة بدينة رسمه فلاحاً وعاملاً وسيماً ، وفلاحة حبيبة وأم جميلة . لم يرسم المدينة والبنايات والسيارات ولا لاقط التلفزيونات. صور فلسطين الرومانسية المحفورة في ذاكرته الشخصية قبل أي شيء.

فالهوية الوطنية في أعمال شموط موضوع يقظ وصريح وهو في مواجهة عالم مهدد لثقافته، دائم الصحوة، الوطن في ذاكرته يعيش حيواته الخاصة، فهو لم يعالج قضايا أوطان وأزمان أخرى رغم ترحاله ألقسري وإبعاده عن وطنه الأم . فمعنى الهوية والوطن لمتأمل مثله و لمن عاش و يعيش خارج وطنه نتيجة الاقتلاع يكتسب دلالات جميلة صافية ورومانسية ومجردة من الشوائب.

فسؤال الهوية وإن كانت هي بمثابة الجوهر الثابت أم في حالة حوار مع الآخرين وتحول؟ ،

يبقى بالنسبة لشموط ولمن عاش خارج المكان، وفي منفى دائم ، غير سؤال الهوية التي يكتسبها الإنسان في وطنه . . الذي يسميه الآباء "الوطن الأم" .

علاوة على ذلك تبرز في أعمال شموط ظلال شعرية وهي المحملة بطاقة تعبيرية وجماليات ليس في ملامح الشخصيات والاكسسوارات إن جاز التعبير فقط وإنما في موضوعاتها، بالرغم من أنها تتمحور حول المعنى الوطني فهو عندما يرسم الأمومة والطفولة والأعراس و الناس وظلال عيونهم وقدهم، يحرص على ملابسهم والنباتات والأثاث وهي تخلو من المباشرة اللغوية والشعار فبمقدار ما في أعماله من سهولة في التعبير وبساطة وتوضيح، بمقدار ما تتمتع بفائض من الملمح الشعري الذي يطغى على التفاصيل المجردة للواقع . .

خالد حوراني

رام الله